قصة

دمعتان

نهض الوالد من فراشه مع الغلس، فنهض بنهوضه صبيٌّ خلّف الثامنة بأشهر، وأمٌّ في ريعان الشباب، وعجوز تخطو نحو الستين، يدعوها الصغير جدّة.

وعلا صوت الوالد يأمر وينهى، وارتفع صوت الابن باكياً صارخاً. ووقفت من بينهما الأمُّ تتعالى في إجابة هـذا وإرضاء ذاك. وأخذت هينمة الجدّة في تسبيحها تعلو بين لحظة وأخرى، فلا تكاد تصل الى آذان الجميع حتى يفهموا منها أنها غير راضية، فيخفضوا من أصواتهم، ليعودوا بعد قليل الى ما كانوا أشد وأقوى.

* * *

كان اليوم بدء اتصال الصغير بالمدرسة الابتدائية في المدينـة، وقد أعدّ له أبوه مع الحُلة الجديدة، رباط رقبة، مما يشده الكبار اليوم الى رقابهم، وكانت هذه أول حلة من هذا الطراز دخلت البيت. وما لهذا القروي النازح وزوجه عهد بأجزائها، وكيف يحشران فيها جسم الصغير حشراً؟ وكان الصغير على قليـل من الدربة بمثل هـذا، أفادها من صلته ببعض أولاد الجيران.

* * *

ولم ير الأب أن يتنحى عن هذا الميدان، وعزّ عليه أن يجهل القليل الذي يعرفه صغيره. فكان ذلك علة هذا الضجيج الذي ضاق به البيت، فنفذ من نافذته الى الطريق، ونذر به للجيران فألقوا إليه أسماعهم.

واتسع الخرق على الوالد، فقد وقف الى ابنه جاهداً أن يعقد له هذه العقدة من رباط الرقبة فلم يفلح. وحاولها الابن متحدياً أباه، ولكنه لم يكن لقّن هذا من أقرانه. وعلا الصوتان، وكادت يد الأب تمتد الى الابن إيذاء وضرباً.

فانتزع الصغير نفسه انتزاعاً ، وخرج يعدو ، وأبوه يصرخ في إثره ، واستشرف المتشوفون من البيوت المجاورة ، فرأوا صغيرهم الذي كان يغدو ويروح بينهم في جلباب ، متنملاً مرة وحافياً أخرى ، أصبح في حلة إفرنجية ، ورأوه يسحب خلفه شريطاً ، عرفوا بعدُ أنه رباط الرقبة الذي أعيا أمره الأسرة كلها .

ooo

وفي فناء متسع ، تتوسطه حديقة صغيرة تلتف بنافورة ، وقف الصغير في حشد غفير الى صغير يكبره قليلاً ، يسوّي له ما تشعث من أمره ، ويدرّبه على تلك العقدة العقداء كيف يربطها وكيف ينقضها .

وارتفع صوت الضابط بعد قليل يدعو التلاميذ بأسمائهم ، وكان من خلفه مشرفون يصفّون التلاميذ صفوفاً . وانتهى النداء الى صغيرنا ، فلبّى غير محسن ، فأضحك غير واحد .

واستقامت الصفوف ، وسكنت الأصوات ، وأرهفت الآذان تستمع لما يلقيه الضابط ، والصغير في شغل من هذا كله بحذائه مرة ، وبسراويله أخرى ، غير منقطعة يداه من تلمّس مكان العقدة من رقبته ، كأنه يخشى أن تنفرط ، وما في يقينه أنّ جمعها يتهيأ له .

واستدارت الصفوف ذات اليمين وذات الشمال ، ومشى التلاميذ مثنى مثنى ، والتفت صغيرنا الى جانبه يرى ثانيه ، فاذا هو مدرّبه في الفناء من قبل . فاتصلت يداهما ومشيا يتحدثان ، حتى انتهيا الى الفصل . فاذا هما جاران الى مقعدين متلاصقين ، وكذلك كانا على مائدة الغداء في مطعم المدرسة .

ooo

دأب الصغير على الحضور الى المدرسة مبكراً ، قد انضمت يده على قرش أو نحوه ، يقف به الى بائع الكعك يوماً والى بائع الحلوى يوماً آخر . وكثيراً ما كان يلقى صديقه « توفيق » في الصباح فيختلفان سوياً الى هذه الحوانيت المتنقلة ، يتقاسمان لقمة أو قطعة من الحلوى ، ويعيد أحدهما على الآخر بفضلة مما حمله من بيته . ثم ينحدران الى المدرسة يمرحان بين النافورة والحديقة حتى ساعة موقوتة .

ooo

واستوثقت بينهما الصلات ، وأنس كلٌّ منهما بصاحبه ، فالتقيا عصر كل يوم

يلهوان خارج الدور ، حتى إذا آذنت الشمس بالمغيب افترقا ، فعاد صغيرنا « أحمد » الى بيته ، حيث يجد أباه على بابه ، قد اتخذ هناك مقعده الخشبي المبسوط تحت أرجله المتعبة .
ويحاول الصبي أن يلج البيت دون أن يراه أباه فلا يفلح .

كان الوالد حريصاً على أن يؤوب ابنه مع انحدار الشمس الى المغيب . وكانت صوارف اللهو تشغل الابن عن أن يكون عند رغبة أبيه . وكان الناس يشهدون مع كل مساء حساب الأب العسير لولده على تلك الدقائق القليلة ، التي لم يقدرها الابن قدرها ، ويرى الوالد التفريط فيها الخسران الكبير .

* * *

وما أن ينقضي البيت على الابن ، ويفرغ من عشائه ، حتى تراه على كرسيه أمام منضدة صغيرة ، يجيل قلمه ، في ضوء مصباح غازي صغير . ثم يرفع صوته ، يدير في فيه تلك الكلمات الانجليزية التي لقنها عن أستاذه في الصباح ، لا يهدأ له بال ولا يخفت له صوت حتى تطمئن نفسه إلى أن الناس في البيوت حوله قد بلغهم علم هذا عنه .

وفي ظل المنضدة والكرسي جلست الأم والعجوز ترقبان الولد في غبطة . فهذا علم لم يعرفه الآباء ولا الأجداد . والى كرسي مقابل اعتاد أن يجلس الأب ، وبين يديه كراسات ابنه وكتبه ، يدفع إليه واحداً بعد واحد ، جاعلاً لكل زمناً يقدره ، حتى كراسات الخط كانت هي الأخرى لها من زمن الاستذكار نصيب ، ولمَ لا يحيل الابن فيها نظره ليرى زلات القلم ونبواته ؟ ولمَ لا يرفع صوته في قراءتها ، ففي كل إفادة ؟ .

* * *

ضجر الصغير بهذا الأسلوب وضاقت به نفسه ، وأعوزته الحجة في إقناع أبيه بما يرى . وكيف يطمئن الكبار إلى حجج الصغار ، وهي تستر وراءها الهرب من الجد والميل إلى اللهو . وكيف لذلك العقل الكبير أن ينقاد إلى من لا يزال صبياً !

وطوى الابن الليالي باكياً ، لا يكاد يأوي الى فراشه حتى يلف جسده بالغطاء لفاً هرباً من ذلك المحيط الذي يألم به .

وهكذا سارت الأيام ، يرى الأب ويريد الابن ، وبين رأي الأب وإرادة الابن بون

يلسع مع كرّ الليالي والأيام . وأصبح البيت لا يخلو من ضجة كلما اجتمع الابن إلى الأب ، تقف فيها الأم إلى جانب زوجها ، وتقف الجدة إلى جانب الابن . يصبحون ويمسون في حديث « أحمد » . فالبيت في شغل به عند محضره ، وإذا غاب فجُلّ حديثهم عما كان منه وما سيكون .

* * *

لها الفتيان — أحمد وتوفيق — خارج الدور أياماً ، ذلك الوقت الذي اعتادا أن يجتمعا فيه عصراً إلى مغرب الشمس . ثم جعلا مكان لهوهما بيت « توفيق » .

وهناك في حديقـة كبيرة ، في ظل قصر يرجع إلى عهد الجدود ، وقف الولدان يعبثان في الأرض بمعاولها الصغيرة حيناً ، وفي مجاري المياه حيناً . ثم ينصرفان من هذا وذاك إلى ما يعنُّ لهما من ألوان التسلية التي انضمّ الفناء والحديقة على الكثير من ضروبها . يغدوان ويروحان حرّين طليقين ، لا رقيب عليهما اللهمّ إلاّ ذلك البستاني ، الذي كان لا همّ له إلاّ أن يحول بينهما وبين أن يقصفا عوداً نابتاً ، أو يمسا بشجيرة .

* * *

وكانت عين « أحمد » في لهوه لا تنقطع عن النظر الى قرص الشمس ، يرقبه في انحداره ويتمنى لو صرت الشمس في مكانها حتى يشبع مما هو فيه .

وما أن تصل الشمس في انحدارها إلى رأس ذاك التل ، الذي جعله دليله ، حتى يسرع نافضاً يديه ، مودعاً زميله ، يقطع الطرق عادياً ، الى حيث يلقى أباه على مقعده ، فيناله إما إطراقة تنبيء عن رضى ، وإما حساباً لا يفلت منه الصبي إلاّ بعد أن يعد ويقسم .

ومضت الأيام على هـذا ، والأب مطمئن إلى أن زمام الأمور بيده ، غير فاطن لهذه الدقائق التي يختلقها ولده ، ولا ملق بالاً لتلك الوعود والأيمان ، التي تنتقض يوماً بعد يوم ، فليس هو ممن يقيم للاخلاق وزناً ، ولا يضيره أن يعبث الولد بالوعود والعهود ما وفّى بواجبه المدرسي .

وكان الوالد يخشى إن غفر لولده القليل أن ينساق إلى التفريط في الكثير ، لذلك جدّ في ألاّ يهمل حسابه على كل تخلف وإن قلّ .

كثر تردد « أحمد » على « توفيق » في بيته كلما وجد الى ذلك سبيلاً . فقضى معه عصر كل يوم الى مغرب شمسه . وخف اليه مبكراً في أيام الجمع ، فقضى معه اليوم كله إلاّ ساعة أو ساعتين ينحدر فيهما الى بيته مع الظهيرة ، فيملأ بطنه وجيبه ، ثم يعود ليصل مع صديقه حبل ما انقطع .

وتنبّه الوالد إثر ابنه يتحسس خبره ، والابن يطوي بعيداً عنه تلك الساعات وذلك اليوم كله ، وعرف البيت وقطانه ، فهاله ما رأى ، وعاد يحمل أفكاراً كثيرة . إلاّ أنه لم يعجل في واحدة منها بشيء ، لحبسها في نفسه ، تاركاً الأمر للمستقبل ، عله يجري بما يرى ويحب .

* * *

مضت الأشهر التسعة فمضى بمضيها العام الدراسي . وخطا « أحمد » خطوة ناجحة من الأولى الى الثانية ، وحمل الخادم اليه شهادته . فمنحه الأب قروشاً رآها الابن شيئاً لا يليق ومدّها الأب إعناقاً وإرهاقاً .

وازوى الابن حياء من خادم المدرسة . فقد ذاق حلاوة احترام الخدم له مع « توفيق » . وفي الحق إنه أفاد من جاه صديقه . ورأى هو كيف يحمي ما أفاد ، وكيف يحفظ هؤلاء الخدم باقين على إكباره مع زميله . فضن على نفسه بذلك القرش الذي كان ينتزعه من أبيه انتزاعاً ، ولم يقف به على تلك الحوانيت المتنقلة أمام المدرسة ، وجعله هبة للخدم ، يجود به كما يجود توفيق .

وكان أبوه لا ينزل له عن هذا القدر إلاّ إذا اضطر الولد لمغادرة البيت دون أن يمس فطوراً . فاحتال « أحمد » لذلك بحيل شتى . والأطفال وإن صغروا لا تعوزهم أساليب الكبار في الاحتيال .

ورضي الصبي ألاّ يذوق في البيت طعاماً في الصباح ليضمن القرش . ولم ينس أن يحتفظ في جيبه باللقمة واللقمتين ، يتبلغ بهما الى الظهيرة ، حيث يلتهم طعام الغداء في المدرسة التهاماً .

* * *

تذوّق أحمد طعم الجاه ورضي أن يشتريه بفضل اليومي ، أو بثمن وجبته الصباحية

وغدا ينعم بشيء مما ينعم به « توفيق » من هذا الاحترام والإكبار .

وقد أفلح يوم سحا بقرشه بعد أن حرمه عن نفسه ، ولكن عليه بعد ذلك أن يكتم الكثير مما يتصل به .

فهذا البيت الحقير الذي يقطنه ، وذلك الوالد الذي لا زال في خشونة الريف وثياب الفلاحين ، كانا مما يشغلانه .

فلم يتح لتوفيق أن يعرف الطريق الى بيته ، ولم يبح لوالده بشيء من بيت توفيق ، مخافة أن يدهشه فيه وفي يقينه أنه يجهله .

وجرى الأمر على هذا حتى رأى ساعي المدرسة يحمل ورقة نجاحه بين يدي أبيه . وأراد هو أن يخدع الأب ، واختار الوالد أن يقبض يده إلا عما لا يضيره .

فخلا الولد الى نفسه حزيناً ينظر الى عامه المقبل نظرة كلها فكرة وحذر .

* * *

هجر « توفيق » المدينة الى القرية ، حيث موطنه الأول والرئيس ، وحيث أهله وضياعهم . ولم ينس أن يكتب الى زميله كتاباً ، بعنوان اصطنعه « أحمد » ، في كل أسبوع يصف له ما هو فيه ، ويلح عليه في أن يزوره .

* * *

وحبس الوالد دراهمه عن ابنه أيام الصيف . فما لابنه بالدراهم حاجة . فالبيت مليء بالطعام والدوام متسدة للأولاد ، ولا سيما اذا كانت قروشاً . وحسب الصغير مليمات ينفقها في متاع سهل هين ، لا يعدو إصبعاً من الحلوى ، أو كوباً من الشراب .

* * *

وكلفت الكتابة أحمد الى صديقه ثمناً غالياً . فليس له مدد إلا هذه الملاليم . والوالد لا يؤمن أن تنفق الدراهم في هذا العبث الصبياني . فهو يعرف الكتب لا تكون إلا بين الكبار في الحاجات والاغراض . وأحسبه يوماً احتجز طابع البريد عن ابنه حين رآه في يده ، وكان ادخر له من مليماته ، ولم يرجعه إليه . ثم جازاه بحبس الملاليم عنه ما دام نصيبه منها هذا الحرمان وإنفاقها فيما لا طائل وراءه .

ولم يجرؤ الصبي أن يكشف لأبيه من رجائه في قضاء أيام في قرية صديقه ، فذلك شيء دونه قطع الرقاب . فعمد الى الاعتذار في كتابه الى صديقه ، بأعذار كثيرة . كان فيها جدّ موفق ، كما كان جدّ كاذب .

* * *

كان «توفيق» ابناً لسري كبير، مات عنه وهو صغير، وخلف معه إخوة كباراً وأمّاً. ولم يكن الكبار في حاجة الى الأم ، فعاشت في هذا الصغير ، تنتقل معه الى المدينة وتؤوب به إلى القرية .

وكان الصبي مدللاً أسرفت أمه في إشباع رغباته . وكشفت له من حنان عميق متصل كلأته به في البيت ، وادخرت له به في المدرسة أيديا تتلقاه بالرفق واللين . وبرّت به صديق ابنها « أحمد » في بيتها بالمدينة ألطف برّ وأممه .

* * *

انطوت أيام الصيف وعاد « توفيق » من القرية إلى المدينة ، ومن المدينة الى المدرسة ، فرأى زميله « أحمد » في حلة العام المنصرم ، لم يظفر من الجديد إلاّ بطربوش وحذاء .

واعتذر الصبيّ ، ولكنه وجد أن عذره في هذه المرة لم يعد مقبولاً ، وأحسّ مذاق الكذب ، وأن له مرارةً كمرارة الفقر ، فبدأ يعرف للصمت قيمته .

ولكن الصبيان لا يقنعون إلاّ بجواب . وفي الجواب ما يهدم هذا الجاه المزيف الذي اصطنعه لنفسه ، فلا مفرّ من أن ينحرف « أحمد » عن طريق صديقه . فاعتزله في المدرسة وخارجها .

* * *

ولكن «توفيق» لم يجفه . فكان يتلمسه إن صادفه في الفناء ، فيشركه معه في لهوه . غير أنه فقد مكانه في بيته مع كل عصر . ودلّه الخادم الذي حمل الشهادة بالأمس القريب الى منزل «أحمد» . فسعى اليه «توفيق» في صبيحة جمعة ، واقتحم عليه البيت ، وخرج به

ولم يجد الوالد شيئاً يقوله ، فنظر الى ابنه باسماً ، وخرج الصبيّ آلما .

نسي «أحمد» على مرّ الأيام فقره الى غنى «توفيق» ولم يعد خاطره الأول علّ من نفسه ولم يخش من زميله «توفيق» شيئاً يؤذي أو يجرح.

وبدأ «أحمد» يكبر في عين نفسه بعد أن صغر، وعاد اليه جنانه بعد أن فقده، ووقف من صديقه موقف الندّ من الندّ بعد ان رجع الى الوراء قليلاً. وملك زمام إرادته بعد أن أفلت منه. ورأى أن لا حرج عليه فيما فيه الحرج كله معه.

غير أنه نهج نهجاً جديداً، فأصبح لا يطعم في بيت «توفيق» شيئاً. وغلا فحرّم المائدة على نفسه. ثم رأى أن الظمأ غير الجوع، والماء غير الطعام، فأباح لنفسه الماء وحده.

° ° °

درج الصبيان نحو الشباب بخطوات سريعة، وجازا المرحلة الأولى من مراحل التعليم إلى المرحلة الثانية. وضمهما فصل واحد في مدرسة واحدة. فعاشا على سابق العهد بهما أخوين لا يفترقان إلاّ في القليل.

وانبسط أفق اللهو أمامهما. فاستبدلا بميادين اللعب دور الخيالة والملاهي. وبيت توفيق جولات في حانات وبيوت معها العطب والجنف.

° ° °

ما امتلأ جيب «أحمد» بقليل أو كثير، وما زاد دخله عما كان عليه صغيراً.

بل بدأ أبوه يقبض عنه يده في الكثير من الأيام. وحسبه ما جدّ عليه من نفقات هذه المرحلة الثانية.

هذا هو العذر الذي جعل منه الوالد علّته في المنع، وأما العذر الذي حبسه في نفسه ولم يشأ أن يفصح عنه، فهو ما كان يساوره من خوف دخل الى نفسه من قديم، وتبين اليوم بوادره ومظاهره.

° ° °

شبّ «أحمد» عن الطوق، وأصبحت له إرادة لم تقو لها ارادة أبيه، وأضحى له رأي يرى الارادة دونه. وأخذت شدة الأب تستحيل موادعة وملاطفة.

رمضى « أحمد » في نشوة الظافر بخروجه على تلك القيود التي أرهقته زمناً ، يطلق لنفسه العنان ، يقضي في الأمور على هواه ورأيه .

منذ شاب كان الأب يرقب يومه . وكان أخوف ما يخافه يوم مشى في إثره وعلى صلته بتوفيق ، أن يجمع الفتى الى جهل الفتوة نزوات الغنى . فتقع عينه على ما ييسره المال لذوي اليسار ، وتخطو رجله الى سبل ليس يتورع أمثال اقتحامها .

وقد ترك الأب الأسى للأيام عليها تنقض تلك الصلة ، وحاول معها جهده العبث بها فلم يفلح . ولم تزدها الأيام إلا قوة وتمكيناً .

كان « توفيق » كريم اليد من سعة . وكان حريصاً في جولاته أن يكون حوله من يريدون في جاهه ويستظلون من عزه ، ذلك ما فعله يوم ضم اليه « أحمد » من غير أن يعمد اليه ، ولم ير « أحمد » تلك الغضاضة الأولى التي كان يجدها بالأمس ، فثوى في ركاب زميله يشركه في كل شيء .

فذاقا ما لم يذوقا بالأمس ، وتقلبا في غير مضجع .

وطالت غيبة « أحمد » عن بيته في بعض لياليه الى ما بعد منتصف الليل ، وهو الذي كان يحذر الدقائق بعد مغيب الشمس . وعلا صوتُه صوتَ أبيه .

فأسلم اليه الأب أمره كارهاً ، وجلس يرقب الأمور عن بعد ، ويسأل الله السلامة فيما كان ، وأكثرت نجدة من الصلاة والدعاء . وباتت الأم مهمومة عابسة .

* * *

لم يطل « عهد توفيق » بالمدرسة فتركها الى الزراعة والتجارة ، وحلّت حرب طاحنة فأفاد منها مع المفيدين ثراء الى ثراء . ولم تكن هذه المدينة ميداناً كله ، فقلت زوراته لها ، وبات لا يتنزل بها إلا لماماً . فانفصمت صلته بأحمد إلا مع زوراته القليلة الحديثة وانتظمت به حاشية أخرى تختلف ألواناً ومشارب ، كلهم خلو إلا من يتمسّح بالجوق وشربه ، والعبث ومسالكه .

فغرق « توفيق » في هذا العباب غرقاً ، وطواه هذا البحر بين أمواجه طيّاً ، وحسب العمر يتعمر من استيعاب اللذات ، ففرغ لها ، وعاش أيامه من أجلها .

والتق « أحمد » بصديقه ، في بعض تلك الزورات ، فكان يأخذ مكانه الى جانبه بين هذا الحشد ، ثم يضيق بهم ، أو يضيق بنفسه فيتركهم الى بيته .

وأخذت الأيام تبعد ما بين الاثنين ، فقد ساءه من زميله إهمالُ أمره ، فأصبح لا يلقاه إلاَّ عفواً . ورابته رِيبة فقبع في بيته ، وذكر نفسه ، فضاعف جهده ، ومال الى حيث يجب لمثله أن يميل .

ففرح أبوه ، وقرَّت به عين أمه ، ووهبت الجدَّة نذرها فصامت وصلَّت .

* * *

كانت العاشرة من صبيحة يوم صحو ، حين بدأ طبيب المصحة يمر من خلالها متفقداً المرضى . وكان عامر القلب بالرحمة كريماً مع المعوزين ، رحيماً بالضعفاء ، فما مرَّ بحجرة إلاَّ حيته العيون من فوق الوسائد مغرورقة بالدمع ، ولا غادر غرفة إلاَّ تبع الدعاء في إثره ينبعث من صدور ضعيفة .

* * *

وفيما هو يطوف بأسرَّةٍ اشتراها القادرون دخل الى غرفة منعزلة ، وبينما هو يلقي بصره على السرير ، إذا مصدور يرفع بصره إليه ، وإذا دمعتان تنحدران على خدين . أما دمعة الطبيب « أحمد » فقد جرت حارَّة ، لأنها انحدرت من عين حزينة ساءها هذا المصير لزميل قديم . وأما ثانيتهما فقد ظَرَفت بها عينُ مصدور ، لم يكن غير « توفيق » رأى من طبيبه صديقاً قديماً ، فلأُهُ الرجاء وأيقن بالشفاء .

* * *

وشاء الله ألاَّ ترقأ الدمعة الحارَّة . فلم يمض غير قليل حتى قضى « توفيق » وخلَّف مع من خلف على بكائه ، هذا الاخ يذكره كلما مرَّ بهذه الغرفة ونظر الى ذلك السرير .

ابراهيم الابياري